منهجية الكتابة التاريخية عند عبد الكريم الفكون
من خلال مؤلفه: منشور الهداية في حال من ادعى العلم والولاية

الدكتور بكاري عبد القادر، جامعة ابن خلدون تيارت
bekk1960@yahoo.fr

الملخص:

خلف المؤرخون الجزائريون تراثا تاريخيا ضخما أودعوه في عدد من المؤلفات التاريخية على اختلاف مواضيعها، وساهموا بكتاباتهم في طرح عدد من الآراء والنظريات التاريخية والاجتماعية التي استضاء بها العديد من الباحثين والمفكرين المختصين في التاريخ وممن يتصدون للكتابة والذين يعملون على تطوير هذه العلوم، ومن هنا كان من الضروري دراسة مناهج البحث التاريخي الجزائري في العصر الحديث. ولكي ندرك ذلك، تناولنا بالدراسة في هذا البحث أحد أبرز المؤرخين الجزائريين في العهد العثماني، وهو المؤرخ والفقيه عبد الكريم الفكون(ت1073هـ/1663م) ودراسة منهجه في الكتابة، لما له من الأهمية درجة عالية في كشف جوانب مهمة تتعلق بطبيعة معالجته للتاريخ الجزائري المحلي خاصة الناحية الشرقية من الوطن في طابعه العربي والإسلامي، ومدى واقعيته في تتبع أحداثه والحكم على رجاله.

الكلمات المفتاحية:

الكتابة التاريخية- مناهج البحث التاريخي- كتب التراجم- كتب السير-عبد الكريم الفكون- علم الرجال- البيوتات العلمية- فكونة- المذاهب الصوفية- العصر الحديث.

Abstract :

the Algerian historians have left a huge historical heritage, they have deposited it in a number of historical scripts of various subjects and have contributed with their writings in the presentation of a number of historical and social theories and opinions that have been adopted by many scholars and thinkers in history among whose are writing and working on the development of these sciences. So it was necessary to study research methods of the Algerian history in modern times.

In order to realize this, we discussed in this research one of the most prominent Algerian historians in the ottoman era, the historian and jurisprudent Abdul Karim ibn faggun (1073AH/1663AD) and the study of his approach in writing, due to his great importance in uncovering important aspects related to the nature of his treatment to the Algerian local history, especially the eastern part of the country in

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

its Arab and Islamic character and its realism in following its events and judging its men.

Key words: Historical writing- Historical writing methods- Books translations- Biography books- Abdul Karim El-Fagun- Science of men- Scientific houses- Faguna- Sufi sects- The modern era.

مقدمة:

لقد كانت وما زالت الكتابة القناة الأساسية لنقل المعرفة وحفظها، والجسر الذي عَبَرت منه الحضارات ونتاجاتها نحو الزمن الآتي، ورمز للتفكير. فلولا الكتابة لما وصلنا خبر الحضارات القديمة، ولا انجازاتها وآدابها وفنونها، ومن خلالها تفرد الإنسان بحفظ تأريخه ونقل تراثه، فهي على حد قول صاحب كتاب قصة الحضارة "وعاء الحضارة". فالشعوب التي لم تكتشف الكتابة حتى وقت متأخر من حياتها، انخفض إسهامها في حركة التطور، لأن التطور يقوم على التراكم المعرفي، ولا سبيل لتجميع وحفظ وتراكم المعارف من دون كتابة.(ديورانت، و.1987:184).

ومن هنا ليس من شك أن كتابات المؤرخين الجزائريين منذ العصر الحديث قطعت شوطا كبيرا في الكشف عن المكانة الكبيرة التي يحتلها المؤرخ الجزائري في مصاف الدراسات التي تناولت التاريخ الجزائري المحلي خاصة والتاريخ العربي الإسلامي عامة، فقد ارتبطت الكتابة التاريخية إلى حد كبير بالعمليات المعرفية الضمنية التاريخية، كما ارتبطت كذلك بالجهاز المفاهيمي الذي يستدعي تفسير الوقائع وتيسير فهمها ومنحها قدرا من المعقولية، وبالتالي ارتبطت بما يحمله المؤرخ من مسبقات دينية أو إيديولوجية أو فلسفية، ...لذلك لا توجد كتابة تاريخية واحدة، بل توجد كتابات متعددة تختلف كثيرا فيما بينها.

من بين الكتابات التاريخية التي راجت واهتم بها مؤرخو الجزائر في العصر الحديث، كتب التراجم والسير، حيث أولوها جانبا كبيرا من الأهمية في كتاباتهم التاريخية، لأن علم التراجم يعتبر فرع من فروع علم التاريخ، بل أن فن التراجم أعم من علم تأريخ الرجال، لأنه يتناول جميع الأعلام من الخلفاء، والوزراء، والعلماء وغيرهم، بخلاف علم تأريخ الرجال، فإنه يختص بالرواة والروايات. وقد كشف بعض المؤرخين سبب ارتباط علم التراجم بالتاريخ، دراسة رواة الحديث واتصال الأسانيد من انقطاعها، وفي ذلك يوضح احمد بن حجر العسقلاني سبب الاحتياج إلى معرفة هذا العِلم (التراجم) معللا ذلك بقوله: "لتضمنه تحرير مواليد الرواة ووفاتهم، وأوقات طلبهم وارتحالهم، وقد افتضح أقوام ادّعوا الرواية عن شيوخ ظهر بالتأريخ كذب دعواهم".(العسقلاني، أ. د ت:65).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إن علم التراجم أو علم تراجم الرجال، علم يتناول سيرة حياة الأعلام من الناس عبر عصور مختلفة، ويبحث في أحوال الشخصيات والأفراد من الناس الذين تركوا آثارا في المجتمع، بل ويتطرق إلى كافة طبقات الناس وفي شتى المجالات، بذكر حياتهم الشخصية، ومواقفهم وأثرهم وتأثرهم في الحياة، وهو ما أدى إلى كثرة وتنوع كتب التراجم، وانقسامها إلى عدة أقسام، منها ما هو مخصص لتراجم أهل اختصاص واحد، ومنها ما هو مخصص لأسرة معينة، ومنها ما هو مخصص لترجمة شخصية بعينها، ومنها ما هو مخصص لتراجم الرجال أهل مذهب واحد، ومنها ما يعم قطرا أو أقطارا أو العالم الإسلامي بأكمله، وغير ذلك(حجي، م.1995:56).

وفي هذا المقال سنتعرف على نوع آخر من التراجم، وهو ما يسمى بالتراجم المشتركة، أي يشترك مع هذه التراجم موضوعات أخرى. ومن الملاحظ عند دراسة هذه الكتب من التراجم، نجد أن مؤلفيها ساروا في إعدادها على منهجية واضحة، والدارس لمناهج الكتابات التاريخية الجزائرية في هذه الفترة، يجد أن أكثر كتب التراجم التي ألفت تتركز حول دراسة تراجم العلماء والأولياء الصالحين، وتراجم حكام الجزائر وولاتهم (الدايات-البايات)، تتخلل هذه التراجم أحداث سياسية، أو اجتماعية، أو جهادية (فتح وهران مثلا) أو كلاهم معاً، وهنا نقف لنتساءل: هل يمكن الإعلان عن هذا النوع من الكتابة أنها تنتمي إلى مجال التاريخ؟ وهل يمكن منح صفة التاريخ لمؤلفاتهم؟ خاصة إذا علمنا أن التاريخ تخصص معرفي علمي قائم بذاته ظل يتعارض مع التاريخ كجنس أدبي أو أي جنس آخر؟كما سنتعرف على منهج الكتابة عند عبد الكريم الفكون في الجمع بين المنهج التاريخي وبين التراجم التي تضمنها الكتاب، وهل تأثرت كتابته بالسياقات الحضارية والثقافية، وبالميولات الفكرية للعصر الذي كتبت فيه، وبالجذور الاجتماعية والتموقعات السياسية لعبد الكريم الفكون؟ علما هنا مثلا إذا كانت مؤلفات ابن الأحمر وابن القاضي والمقري أهم ما كُتبَ في تراجم علماء وأدباء وملوك المغرب والأندلس في القرن التاسع والعاشر الهجريين(15-16م)، فإن مؤلفات ابن مريم التلمساني وعبد الكريم الفكون القسنطيني تعتبر أهم ما كتب في تراجم علماء وأولياء وأدباء الجزائر في تلك الفترة.

التعريف بشخصية عبد الكريم بن الفكون:

هو أبو محمد عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم بن قاسم بن يحي الفكون التميمي القسنطيني(الفكون، ع.1987: 7)، من أعرق وأشهر البيوتات العلمية في مدينة قسنطينة"بيت آل الفكُون" والتي تنتسب لقبيلة ابن تميم العربية، إذ أن أفراد عائلة الفكون يذكرون هذه النسبة (التميمي) مع أسماءهم. تعود جذور تواجد هذه العائلة بمدينة قسنطينة إلى القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، فأجداده مدفونون بها، ولهم زاوية تحمل اسمهم، وقد ذكره أحمد المقري ونوه بأسرته نظما

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ونثرا بقوله: "فهو العالم الذي ورث المجد لا عن كلالة، وتحقق الكل أن بيته شهير الجلالة، بيت بني فكون، هضاب العلم والوقار والسكون، لا زال الخلف منهم يحيون مآثر السلف"(الفكون، ع.1987: 321).

في حين أن عبد القادر الراشدي يذكر أن نسب هذه الأسرة ينتهي إلى فكونة، وفي ذلك يقول: "وأولاد نعمون من توابع الحفاصة من هنتاتة وأولاد المسبح من بني مرداس بن عوف السلمي وأولاد الخيتمي من ختيمة قرية بأوراس وأولاد الفقون من فكونة قرية بأوراس أيضا(سعد الله، أ.1986: 8-9).

ولد عبد الكريم الفكون بمدينة قسنطينة عام988هـ/1580م، وهي السنة نفسها التي توفي فيها جده عبد الكريم بن قاسم الفكون، فسمي باسمه(سعد الله، أ.1986: 8).نشأ في ظل عائلة عاشت على العلم، وعلى تنشئة أبنائها على حفظ القرآن، وتولية القضاء والتدريس، واعتناق المذاهب الصوفية، حتى صار من أكبر علمائها وفقهائها، قال عنه العياشي: "الشيخ الفقيه المشارك النبيه الفهامة الناسك الخاشع الجامع بين علمي الظاهر والباطن سيدي عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم الفكون القسنطيني"(العياشي، ع.2006: 512).

وعرّفه محمد مخلوف بقوله: "أبو محمد عبد الكريم بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الفكون القسنطيني الإمام العلامة، العمدة القدوة الفهامة، الجامع بين علمي الظاهر والباطن، التزم عقب كل شاهد ذكر حديث مناسب للشاهد"(مخلوف، م.2002: 448).

تلقى عبد الكريم الفكون ثقافة علمية فقهية وأدبية واسعة، وكان ذا إطلاع واسع بالفقه المالكي، وحتى وإن كانت ثقافته تقوم على المجهود الشخصي والعائلي(التكوين والتعليم داخل العائلة)، فإن لها نسبا، وهو أخذه عن الشيوخ الأجلاء والعلماء الأكفاء خاصة من المجتمع القسنطيني آنذاك، فقد أفرد لهم فصلا خاصا في كتابه "منشور الهداية"، وهو الفصل الأول، ومنهم: الشيخ أبو عبد الله محمد بن مزيان التواتي المغربي، أشهر شيوخه الذي يعتز به وبعلمه كثيرا، والشيخ أبو الربيع سليمان بن أحمد القشي، والشيخ أبو فارس عبد العزيز النفاتي القسنطيني.

تولى عبد الكريم الفكون وظائف عصره، التدريس، الإمامة، والخطابة، وهي وظائف تقليدية وراثية في الأسرة، لكن الوظيفة الأساسية والتي لم يتولاها أحد من أفراد عائلته من قبل، هي وظيفة" أمير ركب الحجيج"، والتي احتفظت بها أسرة الفكون إلى غاية سنة 1838م، حين ألغت السلطات الفرنسية ذلك.(سعد الله، أ.1987: 394).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

من خلال الاطلاع على قائمة مؤلفات الفكون، يظهر أنها تتوزع في مجالات مختلفة، فقد كتب في الحديث والفقه واللغة، كما نظم الشعر، وهناك ملاحظة يجب التنبيه إليها وهي أن عبد الكريم الفكون ألف معظم إن لم أقل كل مؤلفاته في فترة حياة والده، أي قبل سنة1045هـ/1635م، ومن بين أهم مؤلفاته ما يلي:

- منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية الذي تعرض فيه لترجمة أكثر من سبعين شخصية، ألفه على فترات في شكل مذكرات، انتهى منه بعد سنة1045هـ/1635م يسميه تأليفا، تقييدا، وأحيانا ديوانا، به معلومات هامة عن الحياة الاجتماعية في قسنطينة(سعد الله، أ.1987: 15-16). -كتاب"محدد السنان في نحور أخوان الدخان. - فتح المالك في شرح ألفية بن مالك.– الدرر في شرح المختصر. – شرح البسط والتعريف في علم التصريف. – فتح الهادي في شرح جمل المجرادي ومخارج الحروف من الشاطبية.– شرح لامية الجمل النحوية للمجراد السلاوي. عاش عبد الكريم الفكون بقية حياته منقبضا عن الناس، وترك الاشتغال بالعلوم، توفي بالطاعون عشية الخميس 27 ذي الحجة1073هـ/ 3 أوت1663م عن عمر يناهز خمس وثمانين سنة(الحفناوي، أ.1985: 166).

الكتاب ونسبته إلى مؤلفه:

إن إثبات صحة نسبة العنوان لمؤلفه جزئية من المباحث الهامة في فهرسة المخطوطات، وفي تحقيق النصوص، وفي تأليف الكتب.فعبد الكريم الفكون من الذين أجادوا واعتنوا بهذه المسألة (إثبات نسبة العنوان لمؤلفه)، حيث جاء العنوان صحيحا واضحا في الصفحة الأولى من المخطوط، وكتب بالعبارة التالية" الحمد لله وصلى الله منشور الهداية في كشف حال من أدّعى العلم والولاية، تأليف العبد الفقير إلى الله تعالى الشيخ الولي الصالح النحرير سيدي عبد الكريم الفكون، غفر الله له ورحمه ونفعنا ببركاته وبركات أمثاله آمين آمين آمين" انتهى ما كتب من عنوان بخط المؤلف.

ويضيف محقق الكتاب أبو القاسم سعد الله أنه استخرج معلومات من أسفل الصفحة الأولى مكتوب عليها بخط دقيق فيه محو يكاد لا يقرأ العبارة التالية" الحمد لله (؟) في نوبة... الورى لربه محمد بن عبد(؟) بن بدر الدين بن محمد بن عبد الكريم مؤلفه بن محمد بن عبد الكريم بن يحي بن محمد الفكون، كان الله له في الحركات والسكون، آمين"(سعد الله، أ.1987: 29).

وسواء كتبت هذه العبارة بخط المؤلف، أو أضيفت من الناسخ، فهي من الدلائل التي يستدل بها على إثبات صحة نسبة العنوان لمؤلفه، فقد طرحه في خطبة الكتاب(الصفحة الأولى)، ولا توجد أية

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

محاولة للتعديل أو الشطب أو التحوير والتبديل، ولذلك كل من ترجم للشيخ الفكون ذكره من ضمن مصنفاته، ومنهم الكاتب الفرنسي فايسات (vayssettes) الذي أشار إليه في مصنفه "تاريخ بايات قسنطينة" الذي ألفه في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، حيث ذكر أنه عَلِم به، وعرف أهميته ولكنه لم يطلع إلاّ على بضع أوراق منه (فايسات، روكاي لسنة1868م). أما الكاتب الفرنسي الثاني شيربونو(cherbonneau) والذي كتب عن تاريخ مدينة قسنطينة في العهد العثماني، أشار إشارة غامضة وغير واضحة مكتفيا بقوله، بأن الكتاب يتناول طرق الصلاح وتاريخ المرابطين في شمال افريقية(المجلة الأسيوية لسنة1858م)، ولكن في اعتقادنا ونظرا لحاجتنا فهي إشارة يعتمد عليها إلى حين... وإن كنت اكتفيت بهذين الرأيين، فلأنني ذكرت كل من ترجم للفكون في العنوان الخاص بـ"اسمه ونسبه".

سبب تأليف الكتاب وموضوعاته:

لقد دأب العلماء والصلحاء على التصنيف والتأليف، وجل التصانيف تكون لأسباب، والقليل منها يكون لغرض مجرد التأليف. وذكر الأسباب، إنما هو في الحقيقة للحاجة والأهمية والضرورة، والتحذير تجنبا للوقوع في الخطأ والزيغ، وتقديم النصيحة والإصلاح والتربية، والشعور بالمسؤولية والتأثر، والانتصار للمبدأ أو المذهب، والتصدي للمنكرات، وهي من دون شك أهم الدوافع والتأليف عند المسلمين عامة(رمضان يوسف، م.2005: 97).

يذكر عبد الكريم الفكون دوافع تأليف مؤلفه بالتفصيل، مشددا لهجته، محذرا متحسرا، ناصحا أمينا، خاصة وأنه ذو ثقافة واسعة، كان على دراية بأمور السياسة والسلطة، ومطلع على أحوال المسلمين، ويمكنني تلخيص دوافعه فيما يلي:

- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الرجوع إلى الدين الصحيح لإحياء سيرة العلماء، وتجديد ذكرهم، وتبيان مبادئهم.

- التصدي للجهلة الضَالين المضِلين المعاندين، المبتدعة الدجالين الكذابين على طرق الصوفية المرضيين، والتحذير منهم في كل زمان ومكان.

- غيرته على دائرة الكمال من أهل حضرته المتصوفين، وصفوته المتعلمين، الأصحاب الأحباب من أهل الخير والصلاح.

- الدعوة إلى العمل بالعلم الصحيح والتعمق فيه لفهم الحياة فهما عقليا، والشعور بالآلام وإدراك الأخطار، والتفكير في أسباب الداء ووصف الدواء(أحمد، أ.1979: من المقدمة).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أما موضوعات الكتاب، فإنه يحتوي على أربعة أصناف من التراجم، لكل صنف فصل خاص به:

الفصل الأول من مؤلفه، خصصه للعلماء والصلحاء المقتدى بهم الذين التقى بهم، أو سمع عنهم، وعددهم أربع وعشرون، أشهرهم عمر الوزان، الأوراسي، محمد العطار، أحمد الغربي، بركات المسبح، محمد التواتي، ويضيف إليهم أجداده المتقدمين ومنهم يحي وقاسم عبد الكريم الجد ووالده محمد.

أما **الفصل الثاني**، فقد أفرده لمن تولوا المنصب الشرعي وهم غير أهل له، فكانوا مدعين العلم، أو متشبهين بالعلماء، باستثناء القليل منهم الذين تتوفر فيهم شروط تولي الخطابة والتدريس حسب رأي الفكون، وعددهم اثنان وعشرون، أشهرهم: محمد بن القاسم الشريف، يحي بن باديس، أحمد الجزيري، محمد السنوسي المغربي، محمد بن نعمون.

الفصل الثالث، عبارة عن تراجم لمن ادعى الولاية، والذين وصفهم بالدجاجلة الكذّابين، والمتشدّقة المبتدعة الضَالين المضِلين، وعددهم خمسة عشرة، اشتهر منهم أحمد بوعكاز، الحاج الصحراوي، عبد المالك السناني، وقد ألحق بهم محمد السادي البوني، رغم علمه وورعه، وقد أخذ عليه تصرفات بدرت منه ونسبت إليه(سعد الله، أ.1985: 356).

أما **الخاتمة**، فهي في الحقيقة فصل ختامي، خصصه ابن الفكون لذكر بعض الأصحاب والأحباب الذين وصفهم بإخوان العصر، ويقصد بذلك الذين عايشهم وعاصرهم وعددهم أحد عشر، أغلبهم وأشهرهم من خارج مدينة قسنطينة كأحمد المقري، محمد بن ناجي، بلغيت القشاش، محمد بن الموهوب، علي بن عثمان الزواوي وأحمد بن الحاجة الميلي.

يضم مؤلف"منشور الهداية" معلومات كثيرة ومهمة مست جميع الميادين تقريبا، في الفترة الممتدة ما بين القرنين العاشر والحادي عشر للهجرة/ السادس عشر والسابع عشر للميلاد، حيث نستطيع التعرف من خلاله على:

- الواقع الثقافي ونشاط العلماء، وعلاقاتهم بالحكام العثمانيين، كما يبرز الكاتب نفوذ العائلات الكبيرة التي توارثت العلم والجاه، واشتهرت بالتصوف، وتأثيرها على الحياة الثقافية من حيث طرق التدريس والإجازة، والإشراف على الكتاتيب والزوايا، ومراسلات العلماء فيما بينهم.

- الواقع الاجتماعي الذي يتضمن أسماء القبائل والأعراش والعائلات، بالإضافة إلى طبيعة السلطة المحلية وعلاقتها بالسكان من جهة، وبالعلماء من جهة ثانية.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- الواقع السياسي وفيه يذكر الثورات والتمردات العديدة، وما ارتبط بها من عمليات قمع واضطهاد للسكان من قبل السلطة، حيث أشار الكاتب إلى تمرد يحي الشاوي سنة988هـ/1545م، وتمرد خالد بن نصر شرق مدينة قسنطينة قبل عام1045هـ/1635م، ومحمد بن الأحسن النقاوسي، وأحمد السوسي المغربي، وإلى مهاجمة سكان قسنطينة للحامية التركية عام1575هـ/1567م.

- كل هذه المعلومات التي احتواها الكتاب، جعلته محط أنظار العديد من الباحثين والمؤلفين، فقد ذكره كلا من فايسات(vayssettes) وشاربينو(cherbonneau)، كما نقل عنه أبو القاسم الحفناوي في كتابه "تعريف الخلف برجال السلف"، وأشاد به أبو سالم العياشي وأحمد المقري.

منهج الكتابة وأبرز ميزاته:

رغم الأهمية الكبيرة التي اكتسبتها جميع مؤلفات ابن الفكون، إلا أن كتابه "منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية"، قد احتل مكانة هامة لدى الباحثين والدارسين في الأدب الجزائري عامة وأدب التراجم خاصة، فقد تضمن مجموعة من التراجم، والتي بلغت حوالي خمس وسبعون ترجمة لعلماء مدينة قسنطينة وما جاورها في القرنين العاشر والحادي عشر، وهي الفترة التي يصفها كثير من المؤرخين والباحثين وفي مقدمتهم أبو القاسم سعد الله بالضعف العلمي والجمود الفكري والتأخر الثقافي.

سجل الفكون تراجمه في شكل مذكرات وتقاييد على مراحل، مما جعلها قد تقصر أو تطول، ولا تخلو من التكرار والاستطراد، وذلك راجع إلى طبيعة المترجم له وتخصصه، وطبيعة المادة المنتقى منها هذه الترجمة، ونوعية المصدر، سواء كان مكتوبا أو مسموعا، بالإضافة إلى أساس الشهرة والشمول النوعي والشمول المكاني. مع العلم، أن مثل هذه العناصر قد لا تجتمع بالضرورة في ترجمة واحدة، فقد ترد جملة في ترجمة، بينما تتوزع الباقية على كثير من الترجمات.

انتهج في كتابته طريقة خاصة، تتضمن أخبارا لطيفة وأراء شخصية صريحة، اعتمدت على ثنائية المدح والهجاء دون اعتبار لأدنى صلة القرابة أو الصداقة أو الحظوة المجتمعية، وهو ما تسبب له بعد ذلك في مضايقات ومشاحنات، وهذا ما أشار إليه في قوله: "رمتني من أجله العيون، وانحقد علّي بغيضي القلوب وأكثرت الشؤون"(سعد الله، أ.1985: 31).

يتحسر ابن الفكون على مجتمعه الذي انتشر فيه الجهل والفساد والزندقة والنصب والاحتيال، وتلاشت فيه القيم والمبادئ، وفي ذلك يصف أهل زمانه بقوله: "لما رأيت الزمان بأهله تعثر، وسفائن النجاة من أمواج البدع تنكسر، وسحائب الجهل قد أظلته، وأسواق العلم قد كسدت، فصار الجاهل

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

رئيسا، والعالم في منزلة يدعى من أجلها خسيسا، وصاحب أهل الطريقة قد أصبح وأعلام الزندقة على رأس لائحة، وروايح السلب والطرد من المولى عليه فائجة"(الفكون، ع.1987: 31-32).

يهدف من خلال مؤلفه "منشور الهداية" إلى لعب دور المصلح الاجتماعي، وهو ما يجعله يتصدى لما كان يسميه بالطائفة البِدعية، مُبديا غيرته على الدين والأخلاق، فاعتبر ما كتبه واجبا بل جهادا، فيقول: "هذا الجهاد هو الذي أحد من السيف في نحور أعداء الله، وناهيك بهم أعداء... فعظم الباحث على النصح بهذا التقييد"، كما يعتبر ذلك أيضا دعوة سلفية ضد الذين حادوا عن سبيل الشرع الصحيح ومسلك الجماعة، مفصحا عن هدفه هذا بقوله: "والبر بتأليفه أردت، وإرشاد الأمة ونصحها قصدته"(الفكون، ع.1987: 33).

كما أن نزعته الصوفية كانت سلاحا حارب به من دنسوا صفاء المنظومة الروحية الصادقة، وبلغة أخرى دافع عن نوع صوفي معين(الفكون من أتباع الطريقة الزروقية)، هو "الصوفية العالمة" أو "الولاية العالمة" التي تنير بهدي المنقول المتواتر، يقول عن ذلك: "فالعالم ولي الله، والولي لا يكون إلا عالما"، وقد قال الشافعي: "إذا لم يكن العلماء أولياء الله، فليس لله ولي، وأما الولي بلا علم، فالعداوة أقرب إليه من المحبة".

لعل من أوجه الشبه في منهج الكتابة عند الفكون، ما نجده عند محمد العبدري البلنسي(ت725هـ/1358م)، والمتمثل في نقداته اللاذعة، حيث يبدوا أن الفكون كان متشائما، ويراعي مقاييس لا تتفق مع واقعها، إلا أنه لا ينبغي أن نغفل عن دقة ملاحظاته، فهو لا يغتر بالمظاهر، وقد اختص بميزة في كتابته لم يشاركه فيها أحد، وهي الجرأة في التعبير عن رأيه وشعوره، وكان مذهبه: أن الناس هم الذين يُعلِمون الشاعر الهجاء بسوء أخلاقهم.

عني عبد الكريم الفكون عناية فائقة بتحبير الأوضاع والتقاييد التي كان يرى في موضوعاتها ورصدها ما يخدم أهدافه التعليمية والتربوية والدينية بصفة عامة. وتآليفه العديدة تفصح عن باعه الطويل في العلم واقتداره على ممارسة الكتابة بجدارة واستحقاق. ولقد وظف قلمه بحق في الدفاع عن آراءه ومعتقداته، محاربا أهل الإدعاء، منتصرا لأهل الاقتداء والورع، وما كتابه "منشور الهداية" إلا برهان على ذلك، وهو بالتالي وثيقة من الوثائق التاريخية المهمة التي أرخت لفترة القرنين10و11 الهجريين.

ومن خلال الإطلاع على تآليف الفكون يظهر انه كانت له مشاركة تتوزع مجالات مختلفة كانت مناط العناية والاهتمام آنذاك. فقد كتب في الفقه والنحو والصرف واللغة، وساهم أيضا في ميدان نظم القريض. ومما يجدر التذكير به في هذا السياق، عناية الفكون واهتمامه بنصوص المغاربة، ذلك بأن

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كتب التراجم تذكر أن صاحبنا رصد في بعض أوضاعه نصوص بعض المشاهير من أهل المغرب كالمكودي وابن آجروم من خلال أعمال الشريف بن يعلى الذي شرح الآجرومية، والمجرادي السلاوي.

مصادره:

اعتمد عبد الكريم الفكون على جملة من المصادر المختلفة والمتنوعة، سواء من المؤلفات التي كانت رائجة في الوسط العلمي وفي حلقات الدروس في زمانه، أو التي سبقته شهرة، ومن بينها:

- **المدخل**، لمحمد بن الحاج أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري الفاسي (ت737هـ/1337م) هو كتاب مدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبيه على بعض البدع والفوائد التي انتحلت وبيان شناعتها وقبحها.(العبدري، م.د ت:127).
- **الرد على المبتدعة**، للحسن بن أحمد بن عبد الله بن البنا الحنبلي الطرطوشي البغدادي، كتاب أراد صاحبه به التقرب إلى الله بقمع أهل البدع والأهواء وكشف عوارهم وهتك أستارهم، وأعتبر أن ترك الساحة للمبتدعة يعبثون بدون حسيب ولا رقيب شر عظيم(الحنبلي، ح.د ت: من المقدمة).
- **الأجرومية أو متن الأجرومية**، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن داود الصنهاجي المعروف بابن اجروم (ت723هـ/1323م)، فقيه نحوي مغربي، تحدث فيه عن أنواع الكلام وإعرابه، يعتبر من أهم متون النحو العربي، كما أوجز مؤلفه فيه كتاب الجمل في النحو، فكان أساس الدراسات النحوية في زمانه.(ابن أجروم، م.1998: 121).
- **المنظومة القدسية**، لأبي زيد عبد الرحمن بن سيدي محمد الصغير بن محمد الأخضري البنطيوسي(ت953هـ/1546م) صاحب الجوهر المكنون في علم البلاغة، هي منظومة بديعة في آداب السلوك، وتسمى بالمنظومة القدسية في طريق السنة، تذكر أحوال المتصوفين في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، وتدعو إلى التمسك بالعلم ونبذ البدعة والعمل بالكتاب والسنة، والجمع بين علمي الظاهر والباطن جمعا صحيحا واضحا، تحتوي على 364 بيتا، طبعت ضمن مجموعة الرسائل المنيرية.(الفكون، ع.1987: 229-234).
- **الحكم العطائية**، هي مجموعة من الحكم عددها264 حكمة، كتبها أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله السكندري، من أهم الشروحات للحكم العطائية، شرح احمد زروق في كتاب"قرة العين في شرح حكم العارف بالله ابن عطاء الله السكندري".(الزروق، أ.1998: 57).

كما أستشهد بفتاوي الشاطبي وأراء الغزالي ومقولات البسطامي ورسائل زروق وبمرويات أبي الحسن الشاذلي وغيرهما.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أهمية الكتاب وقيمته العلمية:

إن مؤلف"منشور الهداية" يندرج في أدب التراجم، وهو ذو قيم متعددة، منها: تصوير طبيعة البيئة في مدينة قسنطينة زمن هيمنة عقلية الخرافة والهرطقة، والتي منها انطلق المؤلف في حملته الإصلاحية التنويرية لمحاولة كشف الزيف والزور، والذود عن الشريعة والدفاع عن أهلها الأصفياء الأتقياء الخُلص، وهو ما يلخِصه في هذا الموقف الحازم الثنائي المعالم. معلم الحسرة على ما آلت إليه الأوضاع من سلب وطرد وروائح الجهل، ومعلم الغيرة والتحذير من ذلك، والتصدي لهم في كل زمان وأوان. ويمكننا استبطان ملفوظاته وأحاسيسه الوجدانية وحقيقة مشاعره من خلال خطابه، وهو ما يثبت ما صرح به عبد الكريم الفكون بخصوص صراحته في معالجة النصح والتصحيح الديني العقيدي والاجتماعي.

كما يقدم المؤلف معلومات قيّمة عن أعيان عصره ممن سكنوا حاضرة قسنطينة، أو ممن استقروا بها من الأجانب، أو حتى ممن مروا بها، وقد فاق عددهم في المؤلف المائة ترجمة. صحيح أنها ليست مرتبة ترتيبا منهجيا واضحا، وبها خَلْط في إقحام ترجمة متقدمة في ترجمة متأخرة، ولكنها لا تخلو من فوائد وإضافات، ومنها تحلية بعض من ترجم لهم بما هو أهلا له، كقوله مثلا عن والده: "كان فقيها صوفيا، وكان ذا سمت وتعفف وأوراد..."، وعن عبد الله بوكلب قال: "وأما استعماله لأداء الفرض فلا تراه أبدا مصليا ولا متوضيا، ولا يفرق بين معروف ومنكر".(الزروق، أ.1998: 52-176).

والكتاب مليء بذكر أماكن الدروس وحلقات العلم بالحواضر الكبرى منها، مدينة الجزائر، عنابة، زواوة(بجاية)، الزيتونة(بتونس)، والقرويين(فاس)، الأزهر(القاهرة)، فيقول وهو يترجم لبعض العلماء مثلا: "أبو العباس أحمد المقري... كان خطيبا بجامع القرويين بفاس، وأصله من تلمسان... ثم سافر للمشرق، واجتاز على تونس، وصحبه منها إمام جامع الزيتونة... وأقام بمصر ودرّس بها بجامعها الأزهر...".(الزروق، أ.1998: 224).

يشير كتاب "منشور الهداية" إلى ظاهرة حجم المقروءات من العلوم والمؤلفات بالترتيب وحسب الأولوية والتي كانت محل عناية من قبل العلماء والمتعلِمين، الفقهاء والمدّرسين، على الرغم من أن الفكون يعترف بالإعراض عن التعلم والتفقه في عصره، إلا ما شذ كما يقول. ومن جملة المقروءات التي اهتم بها أعلام مدينة قسنطينة، متون الفقه المالكي والنحو والفرائض والتصوف.

ففيما يخص الفقه، نجد في مقدمة المؤلفات التي تردد صداها مختصر الشيخ خليل(خليل، ابن إسحاق.2004: من المقدمة)، لأن هذا المتن الفقهي كان مناط الدرس والإقراء، وعناية العلماء به،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وعكوف طلبة العلم عليه، ليس فقط في مراكز العلم بحاضرة قسنطينة، بل في معظم الحواضر والمدارس بالمغرب الأوسط (الجزائر)، ومنها مدرسة مازونة التي نبغ فيها أسرار خليل، ونم نوره في الأقطار.

ومن العوامل التي جعلت هذا المختصر يسود على باقي المختصرات، أنه من أشهر المختصرات الفقهية على مذهب السادة المالكية، بل ربما كان أشهرها على الإطلاق في القرون الأخيرة، وهو كتاب جامع مانع، مختصر يقتصر على ما تكون به الفتوى من الأقوال وترك بقيتها، لذلك اقتصر الفقهاء عليه في حلقاتهم، وكان إذا أطلق اسم المختصر على متن، فإن المقصود "مختصر خليل"، كما كانت هناك متون فقهية أخرى كـ"الرسالة" لأبي زيد القيرواني، و"فروع" ابن الحاجب، و"مختصر" الشيخ عبد الرحمن الأخضري، كل هذه المتون خدمت الفقه المالكي بالمغرب الأوسط عامة وبمدينة قسنطينة خاصة.

أما في كتب النحو، فكانت ألفية ابن مالك بشرح المرادي والمكودي هي المعتمدة في إقراء الدروس النحوية بقسنطينة، حيث درَّسها عبد الكريم الفكون مرة بتعاليق المرادي وأخرى بتفسيرات المكودي، يقول في ذلك: "فلما رأيت من حرصه (يقصد أبي الحسن علي بن عثمان) ما رأيت ساعفته واستعنت بالله، فقرأ عليّ المكودي، واستعان بالتقييد، وبعد ختمه قرأ عليّ المرادي، وقيّد عليّ فيه كثيرا ممّا فتح الله به من الأبحاث"(الفكون، ع.1987: 207).

كما لقيت مقدمة الأجرومية، وعلم القراءات، والمنتخبات الشعرية عناية كبيرة، واهتمام بالغ في مؤلف الفكون، ففيما يخص الشعر يحفظ متن "منشور الهداية" مادة شعرية قليلة متناثرة بين فقرات التراجم، منها ما هو من إنتاج المؤلف(ص237)، ومنها ما هو من قصائد أخرى أعجِب بها الفكون كالقصيدة القدسية لعبد الرحمن الاخضري التي نقل عنها كثيرا(122).

ومهما يكن من أمر، فإن كتاب"منشور الهداية" هو أقرب إلى المؤلفات الأدبية والاجتماعية والإصلاحية منها إلى مصنفات التراجم، وذلك على الرغم من أن المؤلف يزودنا بتراجم كثيرة مهمة للغاية، وبأخبار الأولياء والمتصوفة الذين يلتمس فيهم الفكون البركة والولاية والصلاح، فيذكر الكرامات والمقامات والمنامات ونفحات لبعض الشيوخ منها كرامات الشيخ الوزان.(الفكون، ع.1987: 37).

ونظرة عابرة إلى هذا النص تقنعنا بأن اهتمام المؤلف لا تتجه إلى مشاهد الحضرة التي يصفها بالمظاهر الجنونية المتمردة على ضوابط الذكر ومروءة الإنسان، وإنما هو يتجه إلى تراجم العلماء والصلحاء والأدباء الصادقين. والحق أن الكتاب اقترب إلى أن يكون تقريرا نقديا يعكس إلى حد ما الحركة الأدبية والعلمية في مدينة قسنطينة وما جاورها، وهو في تقديرنا من المصادر الصوفية المهمة والمتميزة لما يحتويه من رؤى تنظيرية تصحيحية، أراد من خلالها المؤلف تجديد المعرفة الصوفية اعتقادا وانقيادا،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

سائرا على خطى سلفه وشيوخه خاصة الشيخ زروق الذي أكثر من النقول عنه ومن رسائله لبعض إخوانه.(الفكون، ع.1987: 194-195)، ومن كتابه البدع(الزروق، أ.2006: من المقدمة).

خاتمة: احتلت كتابة السير والتراجم عند المؤرخين الجزائريين مكانتها بين باقي الكتابات التاريخية الأخرى على غرار الرحلات مثلا، واتخذت أهمية كبرى، ذلك أن تأثير العلماء كان فعالا في هذا الاتجاه، فقد أتاح لكثير من الباحثين معرفة سير الأعلام وترجمة حياتهم، واستقصاء مناهجهم، ومن خلال دراستنا لكتاب الفكون أمكننا الوقوف على بعض الركائز والسمات لكتابته، ومنها:

-النهج العلمي الذي طرحه في مؤلفه، ويظهر ذلك من خلال التنظيم الفهرسي للمؤلف.

-ذكر الأسباب التي حدت به إلى تصنيف مؤلفه، والإبانة عن الموضوعات التي ضمنها الكِتاب، والكشف عن هوية الكاتب، ودوافع التأليف في المقدِمات، ومن ذلك ما ذكره في مقدمة كتابه.

-اختيار العناوين المناسبة والكاملة والشاملة، بحيث انطبقت تمام المطابقة مع محتوى ما ورد في المضامين من أقسام وأبواب وفصول.

-كثرة الاستطرادات التي ميزت مؤلفه، وهو ما يفصح عنه وهو بصدد الحديث ...وذكر أنبائه التي يروق سماعها، والذي اقتضى ذكره شجون الكلام والاستطراد على حد قوله.

-كثرة الاقتباسات من القرآن الكريم والسنة النبوية والأشعار خاصة، حتى يخيل للقارئ وكأنه في مؤلف أدبي أكثر منه تاريخي، ومرد ذلك للثقافة الموسوعية الدينية والأدبية والتاريخية للفكون، واعتماده على مصادر نادرة وذات قيم علمية وأدبية كبيرة، استطاع المؤلف أن يجمع فيها بين منهج كتب التراجم والمجامع الأدبية ذات الطابع الموسوعي.

-وفي الأخير، نقول إذا كانت كتب التراجم عند العرب قد بلغت مكانة واحتلت مرتبة متقدمة لم تبلغه ولم تحتله شعوب أخرى، فإن كتابة التراجم في الجزائر خلال العصر الحديث هي الإطار الذي حَبك فيه المؤرخ الجزائري قصة عمل امتد في فترة زمنية، وأتاح لنا وللباحثين معرفة سير أعلام وأولياء وعلماء كنا نجهلهم.

المصادر والمراجع:

1- أمين، أحمد.(1979).زعماء الإصلاح في العصر الحديث. لبنان: دار الكتاب العربي.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

2-ابن أجروم، محمد.(1998). متن الأجرومية، ط1. الرياض: دار الصميعي للنشر والتوزيع.

3- هو كتاب الناس شرقا وغربا، وليس من شروح ابن الحاجب على كثرتها ما هو أنفع منه ولا أشهر، اعتمد عليه أئمة المغرب وتناولوه بالشروح والتعاليق، حتى وضع عليه أكثر من مائة تعليق مابين شرح وحاشية، ومنها: مواهب الجليل لشرح مختصر خليل، وشرح الخرشي على مختصر سيدي خليل، وجواهر الإكليل شرح مختصر الشيخ خليل، ينظر:ابن إسحاق، خليل.(2004). مختصر خليل، صححه وعلق عليه: الطاهر أحمد الزاوي، ط2. لبنان: دار المدار الإسلامي.

4-حجي، محمد.(1995). جولات تاريخية، ط1. لبنان: دار الغرب الإسلامي.

5-الحفناوي، أبو القاسم.(1985). تعريف الخلف برجال السلف، ج1، ط2. تونس: المكتبة العتيقة، مؤسسة الرسالة.

6-الحنبلي، الحسن.(د ت). الرد على المبتدعة، تحقيق: عبد المنعم عبد الغفور.د د ن.

7-ديورانت، و.(1987). قصة الحضارة، ج1، ترجمة: زكي نجيب محمود. لبنان: دار الجيل.

8-رمضان يوسف، محمد.(2005). دوافع البحث والتأليف عند المسلمين. لبنان: دار ابن حزم.

9-الزروق، أحمد.(1998). قرة العين في شرح حكم العارف بالله ابن عطاء الله السكندري، ترجمة وتحقيق: محمود بن الشريف. القاهرة: دار التراث العربي.

10-الزروق، أحمد.(2006). عدة المريد الصادق، تحقيق: الصادق الغرياني، ط1. لبنان: دار ابن حزم.

11-سعد الله، أبو القاسم.(1986). شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية، ط1.لبنان: دار الغرب الإسلامي.

12-سعد الله، أبو القاسم.(1985). تاريخ الجزائر الثقافي، ج2. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.

13-العبدري، محمد.(د ت). المدخل. مصر: مكتبة دار التراث.

14-العسقلاني، أحمد.(د ت). نزهة النظر في شرح نخبة الفكر، تعليق وشرح: صلاح محمد عويضة. لبنان: دار الكتب العلمية.

15-العياشي، عبد الله.(2006).الرحلة العياشية(ماء الموائد)، تحقيق وتعليق: سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، ط1. الامارات: دار الكتب العلمية.

16- الفكون، عبد الكريم.(1987). منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تقديم وتحقيق وتعليق: أبو القاسم سعد الله، ط1. لبنان: دار الغرب الإسلامي.

17-مخلوف، محمد.(2002). شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ج1، تحقيق وتعليق: عبد المجيد خيالى، ط1. لبنان: منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com